

## نظرة إلى الزمن

نظرت إلى السماء بعين يُداعبها الأمل والحنين والتطلع نحو مستقبل واعد، رأيت النهار يسير ببطء مُبتعداً عني، أمسكت بطرف ثوبه الملون بأشعة شمس توشك على الغروب، تعلقت في أهدابه كي لا أتخلف عنه وأغرق في ظلام دامس، فالظلام هو كل ما يتركه النهار خلفه حين يقرر الحداد على اختفاء شمس هجرته لحضن بحر دافئ. جرتي النهار وسار في طريقه متباطئاً، شعرت بأنني أثقل عليه كثيراً، لكنه لم يترك لي خياراً آخر، فالظلام ليس خياراً، إنه نفق معتم يحاصر كل من يبحث عن النور، كما يحاصر اليأس الروح المتمردة الخلاقة.

نظرت أمامي فإذا بالزمن يركض مُبتسماً دون أن تبدو علي وجهه علامات تعب أو إرهاق، وكأنه يزداد شباباً وحيوية كلما تسارعت خطواته وغابت عن ناظره مخلفات الأقدمين. كان الزمن يتوقف بين الحين والآخر لحظات، تطول أحياناً، يلتفت خلفه ليقيس مدى ما حققه من تقدم على الطريق إلى هدف بعيد يسكن في غابة نجوم كثيفة، لكنه كلما ظن أنه اقترب من الهدف المنشود يتبين له أن الهدف الذي تخيله لم يكن سوى شاهداً على جانب طريق طويلة تبدو بلا نهاية... فكل زمن أو جيل يرسم لنفسه هدفاً خاصاً مميزاً، ما يكاد يلامسه حتى يكون الجيل التالي قد تجاوزه في أحلامه وأفعاله وأفكاره وتطلعاته، وترك هدف الجيل السابق شاهداً جديداً على طريق لا تنتهي.. الزمن يركض، والأجيال تتعلق في أهدابه، ما يجعلها تركز خلفه لاهثة، والشواهد تتوالد، والطريق امامهم تطول.. وتطول.

وقفت أمام شاهد قديم على جانب طريق جبليّة، حاولت أن ألقى نظرة أخيرة على مخلفات أجيال سبقتنا قبل أن تختفي آثارها عن الأنظار، فإذا بي أشاهد الأهل والأصدقاء والوطن يأخذون غفوة على شاطئ بحر هادئ خلف تلك الشواهد... بحر لا تعرف مياهه سوى الجزر. كانت مياه البحر تتبخر ببطء ولكن بشكل متواصل، فكل الينابيع التي كانت تغذي البحر وتعطف عليه توقفت عن الجريان منذ زمن. لكن الأهل لم يدركوا حال البحر وما جرى له على مدى سنين وسنين، ما جعلهم يستغرقون في أحلامهم ينتظرون وصول المد، لكن الظلام نزل ولم يأتي المد. ناموا على أمل أن يفيقوا على نور النهار، لكن الظلام امتد وتمادى. طال الليل وطال النوم، ولم يأتي النور، وحين فاقوا من نومهم وجدوا أن الفجر هرب إلى الشاطئ الآخر، وحمل معه الحلم والأمل، وتركهم يعيشون على مخلفات زمن بلا أمل.

حزنت على أهلي ووطني كثيراً، تمنيت أن أكون قمراً يضيء لهم الطريق ويُبدد الظلام من حولهم، تمنيت أن أكون شمساً تُجدد جريان الدم في عروقهم كما تُجدد الحياة لزهرة الزنبق بعد سبات شتاء طويل، تمنيت أن أكون غيثاً يغذي البحر ويعيد له حيويته وقدرته على المد من جديد. لكنني تذكرت أن القمر يُغريهم على السهر والسمر واللهو، وأن الشمس تبعث فيهم الإحساس بالحاجة لقيولة طويلة قبل أن يستيقظوا ثانية لتناول وليمة هناء أو عزاء، وأن موج البحر يحملهم على جناحيه إلى الضياع بعد أن نسوا فن السباحة والغوص. لذلك قررت أن أكون مجرد فكرة تُوقظ عقولهم وتُلهب عواطفهم وتستثير حماسهم، لكنني اكتشفت أن كل فكرة جديدة تُخيفهم وتُرعب قلوبهم، وتدفع بهم إلى الارتقاء في أحضان ماضي سحيق والعيش مع خيالاته طلباً لراحة البال والأمان والاطمئنان، فكل نهار يأتي يحمل ضوءاً يخطف حلاوة الأحلام، ويجعل القلق سيد الأيام.

وهنا وجدت نفسي أمام خيارين لا ثالث لهما: إما الاستلقاء إلى جانبيهم على شاطئ البحر ونسيان الزمن، أو مجاراة الزمن في شبابه وحيويته المتجددة لحظة بعد لحظة، والعيش مع النهار بعيداً عن الظلام. تعلقت بأهداب النهار، ابتعدت عن الأهل والوطن، لكنني لم أستطع نسيانهم، ولا تناسي ذكرياتي معهم وبينهم، ولا طرد سحر أحلامهم من مخيلتي، تلك الأحلام التي كنت أدرك تماماً أنها مجرد أوهام. نعم، اخترت الغربة والإغتراب بعيداً عن الوطن والأهل على أمل أن أعود إليهم ثانية بفكرة جديدة وتجربة مثيرة عليها توقظهم من سباتهم. لكنني حين وصلت إلى أرض الوطن بعد عقود، وجدت نفسي غريباً في أرض ليست غريبة عني، بين أهل اغتربوا عن ثقافتهم، وهجروا الزمن الذي عرفناه سوياً، وهربوا لأحضان زمن ماضي وأمجاد غابرة تخيلوها حلماً لا بد من إحيائه. أيقنت عندها أن قطار الأمل لم يصل بعد، وأن الطريق أمامه لا تزال طويلة، قد لا تنتهي قبل أن يشيخ الزمن.

وخوفاً من أن يطول الانتظار ويتخلف القطار كثيراً، ويسرق الزمن ما تبقى من سنوات العمر، قررت أن أغرس الأمل في عيون طلابي وأحفادي وأغريهم بالرحيل معي، نصوغ من أفكارنا وأحلامنا نهاراً جميلاً، نتعلق بأهدابه، ونجري معه خلف زمن يعشق الفجر... قررت أن نأخذ من زهرة عباد الشمس قدوة لنا، فزهرة عباد الشمس تغفو قليلاً حين يحل الظلام، تصحو مع قدوم الفجر كل فجر، وتتبع الشمس حيث سارت، تتجه شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً حتى ترى الشمس تأخذ غفوة صغيرة في حضان بحر دافئ وتحلم، فتحلم معها بفجر جديد... تحلم بفجر يجدد حيويتها وينعش روحها قبل أن يأتي السنجاب ليتسلق فوقها، يقطف أزهارها ويتركها تتحسر على شباب كان في الأمس القريب يتباهي بقربه من الشمس، ويعشق روح الشمس كما يعشق الحياة في أحضانها. لكن السنجاب، وإن تتناول على زهرة عباد الشمس

واستغل وداعتها، لا يستطيع أن يصادر كل ما عليها من بذور، إذ يتساقط بعضها على الأرض، يغفو في  
حضانها حتى يحل الربيع، وعندها يصحو ليعيد دورة الحياة من جديد... دورة حياة تتجدد مع كل فجر يأتي،  
ومع كل شمس تغفو لتحلم بفجر جديد.

[www.yazour.com](http://www.yazour.com)

د. محمد ربيع